موقف المغاربة إزاء حملة نابليون على مصر (1798-1801): بين الجهاد والحياد

د. أنس الصنهاجي، جامعة سيدي محمد بن عبد الله. فاس. المغرب.

جدّت فرنسا منذ نجاح ثورة 1789م وتسلم حكومة الإدارة مقاليد الحكم، في نشر قيم الثورة الفرنسية في مختلف ربوع أوروبا والمجال المتوسطي على وجه الخصوص، ولاجرم أن مشروع تصدير الثورة وإفشاء مبادئها التحررية، شكل مدخلا إيديولوجيا رام في أفقه الإستراتيجي إخباء الحضور القوي للبحرية الانجليزية، واحتِناك سيادتها على الأحواض والمحيطات، وتحكمها في التجارة الدولية والمعابر الحيوية، بل واجتحاف زعامتها الدولية التي حظيت بها منذ مستهل القرن 18م، وقد تشوّف "نابليون بونابرت" في الشرق الإسلامي المتميز بموقعه الجغرافي، وثرواته، وجسره الواصل للشرق بالغرب، حصان طروادة الذي يمكن عبره تذليل غزو إسطنبول والهند، والتشييد بهما قاعدة صرح إمبراطورية فرنسية تتحكم في التجارة العالمية والمنافذ الحيوية، هذا الطموح لم يفتر عن مخالجة طموحات الساسة الفرنسيين، ولم يجاف يوما أحلام ملوكها وتطلعاتهم الاستعمارية منذ زمن الحملات الصليبية[281].فحين سيطر "نابليون بونابرت" على الجزر الأيونية[282]، أرسل خطابا إلى المجلس التنفيذي الفرنسي أعرب في نهايته قائلا: "... **بات من الواضح أن الخطوة الأولى في طريق القضاء على الانجليز تبدأ من ضم مصر للأملاك الفرنسية، وهو فعل سيعزز كذلك من تجارتنا في شرقي البحر المتوسط، إن الفرصة مواتية أكثر من أي وقت مضى لاسيما والإمبراطورية العثمانية تعيش ضعفا ما انفك يتسع فتقه يوما بعد يوم**"[283]

وقد رامت الحكومة الثورية بعد الانتصارات التي حققتها في أوروبا -عقب كسر شوكة التحالف الأوروبي الذي رفض الاعتراف بالثورة الفرنسية وأعلن دعمه للملكية- إلى مقترحات غزو إنجلترا في عقر دارها، وإتباعها بالإمبراطورية الفرنسية، كإجراء حاسم يتيح لها التحكم في المجالات البحرية الحيوية، ويعلنها الكيان الأقوى عالميا، غير أن "نابليون بونابرت" اعتبر المقترح مغامرة غير محسوبة العواقب، وأن حسم المعركة يتطلب وقتا طويلا وتدبيرا هادئا، نظرا لامتلاكها أسطولا قويا وقدرات وخبرات وعمقا استراتيجيا يعضُل اختراقه، وارتأى أن الأجدى إستراتيجيا جَذّ تجارتها أولا في الشرق، وقطع طريق المتوسط الذي يجسرها بالهند باحتلال مصر، هذه الأخيرة عدّها نقطة ارتكاز تكتيكية جد هامة في خطة الهيمنة على المجال المتوسطي وامتداداته الحيوية، والحديقة الخلفية للإمبراطورية الفرنسية التي يمكن من خلالها تأمين الموارد الضرورية والمتارس الطبيعية لمواجهة التحديات وتحقيق الطموحات بأوهن السبل وأقل الخسائر.

وبما إن حسمت حكومة الإدارة الفرنسية أمرها بما يواطئ تصور "**نابليون**" في تدبير الصراع الفرنسي الانجليزي، وبعد أن اطمأنت لتقارير وزير خارجيتها "**تاليران**" وقناصلها في مصر والإيالة العثمانية، المشجعين على ضرورة الاستيلاء على مصر، وما يمكن أن يحدثه الفعل في خضم حرب المواقع من تقوية الوجود الفرنسي، وتعزيز حضوره

---

[281]- جاك فريمو، **فرنسا والإسلام من نابليون إلى ميتران**، ترجمة: هاشم صالح، دار قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1991، ص ص. 32-34.

[282]- الجزر الأيونية مجموعة من الجزر اليونانية الواقعة على البحر الأيوني ، وتتألف هذه المجموعة من أربع جزر كبيرة وعدد من الجزر الصغيرة، وتقع على مسافة من الساحل الغربي لبر اليونان. وتبلغ مساحة هذه الجزر في مجموعها 2307كم.

[283]-Lacour Gayet, **La politique orientale de Napoléon**, Paris, p. 302

الاستراتيجي في المياه البحرية ومفاصل التجارة العالمية، وتعويض المستعمرات التي فقدتها في جزر الأنتيل على يد الإنجليز، حتى أصدرت قرارها في 12 من أبريل سنة 1798، بتسيير الجيش شطر الشرق، بتعلّة قطع دابر المماليك المتعسفين، الذين لم يتورعوا يوما عن إساءة معاملة الجالية الفرنسية وتجارها ونهب أموالها وإزهاق أرواحها ظلما وعدوانا، [284]علاوة على تأمين طريق نحو الهند وما وراءها بما يعفيهم من المرور عبر رأس الرجاء الصالح الذي تسيطر عليه البحرية الانجليزية، وذلك عن طريق تجفيف البحر الأحمر من الوجود الانجليزي، وشق قناة سويس التي تفتح البحر الأحمر على المتوسط، وقد حُفّت الحملة بسرية كبيرة، وتعمد الترويج لها في أوساط الجنود والضباط، أنها طلائع الجيش الموجه لغزو المملكة الانجليزية، وقد زاد من حبك عملية التوهيم والتوطين لها، إشراف "نابليون بونبرت" القائد العام للحملة بنفسه على كل تفاصيل إعدادها، حيث كان ينتقي بدقة قادة الكتائب والضباط والعلماء والجغارفة والمهندسيين والمختصين، بيد أن الإنجليز فضحوا الأمر واستبقوا العرض على حاكم الإسكندرية الاصطفاف بجنبه لرد الحملة على أعقابها، لكن الحاكم رفض العرض توجسا من مكيدة يمكنها الإيقاع بالمدينة في شر الاحتلال الانجليزي.

وبمجرد أن اكتملت استعدادات الحملة، حتى أبحرت صوب مصر من ميناء طولون، ما يربو عن 300 سفينة يوم 19 مايو 1798، وعلى متنها ما يناهز 35 ألف جندي، وما إن بلغ الأسطول الفرنسي ليلا شاطئ غرب الإسكندرية بأبي قير غرة شهر يونيو سنة 1798، حتى بادر بإنزال قواته الهجومية على البر، وسيرها نحو احتلال المدينة، وما هي إلا ساعات حتى سقطت المدينة رغم المقاومة الشرسة التي قادها محمد كريم، فقد كان لعاملي المفاجأة والتباين الشديد في العدة والعتاد بين المتناجزين قصب حسم المعركة بهده السرعة، وما إن اقتحمت المدينة حتى أعطى "نابليون" الأمان لكل من أثار التسليم والرضا بالأمر الواقع، موجها في الوقت نفسه نداءً إلى الشعب المصري، افتتحه بالبسملة والشهادتين، معربا فيه عن احترامه للإسلام والمسلمين، ومسوغات قدومه والتي من جملتها تخليص الشعب المصري من طغيان واستعباد المماليك المتجبرين، معبرا في المتن نفسه عن عواطف التقدير والاحترام التي يكنّها للسلطان العثماني، الذي مافتئ تأصره به علاقة وطيدة ملؤها الود والاحترام[285]، ثم طفق يدلّل على صدق دعواه وشرعية مرماه، كما تبين هذه الرسالة التي نعرض مقتطفا من نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، لا اله الا الله وحده ولا شريك له في ملكه ...من طرف الجمهور الفرناسوي المبني على أساس الحرية والتسوية: ساري عسكر كبير بونابرت أمير الجيوش الفرنساوية. يعرف أهالي مصر جميعهم انه من زمان مديد ، السناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنسوية ويظلمون تجارها بأنواع البلص والتعدي فحضر الآن ساعة

[284]- سعيد أوزتورك وآخرون، **الدولة العثمانية المجهولة**، وقف البحوث العثمانية،2008، ص365.

[285]- عبد الرحمان الجبرتي، **مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس**، تحقيق عبد الرزاق عيسى وآخرون، دار العربي للنشر والتوزيع، 1998، ص ص. 101-108.

معاقبتهم... فأما رب العالمين القادر على كل شيء فقد حكم على انقضاء دولتهم.
يا أيها المصريون قد يقولون لكم أني ما زلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لكي اخلص حقكم من يد الظالمين وإنني أكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبييه محمدا والقران العظيم .
وقولوا أيضا لهم إن جميع الناس يتساوون عند الله وان الشيء الذي يفرقهم من بعضهن البعض هو العقل والفضائل والعلوم فقط
أيها المشايخ والأئمة...قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك انهم قد نزلوا في روما الكبرى وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحّث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطا وطردوا منها الكواللييرية الذين كانوا يزعمون ان الله يطلب منهم مقاتلة المسلمين، ومع ذلك فإن الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني..أدام الله ملكه...أدام الله إجلال السلطان العثماني أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية..."[286]

ويبدو أن المغاربة المستقدمين من مالطا الذين تعلموا اللغة الفرنسية في الأسر، قد نجحوا في تأدية أدوار تواصلية بين قادة الحملة والمصريين، إذ يعزا لهم فضل صياغة الدعوات التي حضّت المصريين على الاستكانة والتسليم والرضا بالتقييض، وفي هذا السياق يقول الجبرتي: " **قد كانت الفرنسيس حين حلولهم الإسكندرية كتبوا مرسوما وطبعوه وأرسلوا منه نسخا إلى أهل البلاد التي يقدمون عليها تطمينا لهم ووصل هذا المكتوب مع مجموعة من الأسرى الذين وجدوهم بمالطا وحضروا بصحبتهم وحضر منهم جملة إلى بولاق، وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم ويومين ومعهم منه عدة نسخ، وهم مغاربة يعرفون باللغات**"[287]

وكما كان لمغاربة مالطا دور تواصلي لفائدة الفرنسيين، فقد أدى المغاربة المقيمون في مصر الخدمة نفسها، عقب انهزام الجيش المملوكي في معركة انبابة سنة 1798، وتقهقرهم إلى الجنوب تاركين القاهرة خاوية على عروشها من الجند، إثر ذلك تم إيفاد أحد المغاربة المشهورين برطانته للغة الفرنسية من قبل علماء الأزهر، للتفاوض مع "بونابرت" حول شروط التسليم، وفي هذا الحدث يقول الجبرتي: "... **فاجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا فتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة إلى الإفرنج وينظروا ما يكون جوابهم، ففعلوا ذلك وأرسلوها صحبة شخص مغربي يعرف لغتهم وآخر صحبته...**"

---

[286]- عبد الرحمان الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والإخبار**، الجزء الثاني، دار فارس، بيروت، دون تاريخ، ص ص. 182-183.

[287]- محمد مزين وآخرون، **تاريخ العلاقات المغربية المصرية منذ مطلع العصور الحديثة حتى 1912**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1982، ص. 212.

Iردود الفعل الشعبية والرسمية للعثمانيين وإيالات شمال إفريقيا حيال غزو نابليون لمصر المملوكية

أحدث خبر استباحة جيوش "نابليون" لمصر، ضجة عارمة في مختلف ربوع الإيالات العثمانية وبلاد المغرب، داعية في المنابر الوعظية والحلقات العلمية والمجالس الشعرية[288] إلى إعلان نفير الجهاد بالنفس والنفيس وإعداد العدة والعتاد لدحر المحتلين ورمسهم مدؤومين.

– ردود الفعل الرسمية

ما إن علم الباب العالي بما دهى مصر، وما تَتَرى من انكسار المماليك وتقهقرهم نحو الصعيد، حتى أصدر فرمانا أعلن فيه الحرب على فرنسا، ثم أسرع في استنفار همم ولاياته في المشرق وشمال إفريقيا والإيالات والممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، يحثهم على الاحتشاد في فسطاط الأرداء، لرد الأعداء عن أرض الكنانة الشمّاء، مستصرخا بآصرة الدين كل أمراء وملوك المسلمين، ولهذه الغاية، بعث رسالة إلى حاكم الهند وحكام الإيالات الإسلامية التابعة للسلطنة العثمانية وإلى السلطان العلوى المولى سليمان، يستنصرهم ضد الفرنسيين، ويخطرهم بالخطر الذي يحدق بهم، محذرا من جريرة التقاعس عن تلبية نداء الجهاد نصرة لدين الله وصيانةً لدُور الإسلام وبيضته ومقدساته، ومن عواقب المخططات الفرنسية الاستعمارية التي تهفو الى تحقيق حلم إدماج الشرق الإسلامي وغربه في سلسلة مستعمرات الإمبراطورية الفرنسية.

ففي طرابلس الغرب، قرأ موفد السلطان العثماني المدعو قبوجي باشا في غشت 1798، فرمانا على مسامع حاكمها يوسف قرماني، يخبره بالحرب التي أعلنتها الأستانة على فرنسا جزاء غزوها لمصر، داعيا إياه إلى قطع العلاقات معها وإيداع السجن كل رعاياها المقيمين في الولاية، وتطعيم البحرية العثمانية في حوض المتوسط بالأساطيل التي تحت إمرته بغرض التصدي للتعزيزات الفرنسية التي كانت تتهيأ للانطلاق من ميناء طولون الفرنسي، مُفطِنا إلى ضرورة الرفع من مستوى أداء التحصينات والمتارس التي تسيّج المدينة.[289] هذا الاستنفار لقي استجابة من قبل حاكم المدينة جاء فيه: "... **علمنا بهجوم الفرنسيين على الإسكندرية ورشيد وبموجب الأمر الصادر عنكم إلى الإيالات المغربية، فقد تلي الأمر على الجميع وأبلغنا مضمونه إلى كل أهالي الإيالة وقد سمعوا وأطاعوا. إن العساكر المحمدية متأهبة وجاهزة للحفاظ على حدود الإيالة والى جانب ذلك فقد أمرنا ثلاث قطع من أسطولنا بالاستعداد للقيام بجولات استطلاعية في مياه طولون**"[290] وأمام هذه الإجراءات، وجه "بوسييه" القنصل الفرنسي في طرابلس، رسالة إلى حكومة الإدارة الفرنسية يطلعه فيها على الأعمال العدائية الطارئة ضد القنصلية الفرنسية ورعاياها قائلا: " **في 30 يناير 1799، وبناء على طلب المندوب العثماني أصدر باشا طرابلس تعليماته إنزال العلم الفرنسي**

---

[288]– محمد حواش، **المغاربة والحملة الفرنسية على مصر والشام من خلال كتاب "عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، أعمال الندوة الموسومة ب المغرب– المشرق العلاقات والصورة " مارس 1994، نونبر 1997، جامعة القاضي عياض كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال، ص. 124.

[289]– محمد عبد الكريم الوافي: **يوسف باشا القرماني والحملة الفرنسية على مصر**، طرابلس 1984، ص. 231.

[290]– المرجع نفسه

الذي كان يخفق فوق مبنى القنصلية وكسر صاريه. وهذا بالرغم من أنني وجهت إليه رسالة عاجلة لحثه على عدم القيام بهذا العمل حيث هددته بعواقب وخيمة كما قام بجرد بعض أثاث القنصلية لمجرد التمويه والتظاهر وعين حارسا أمام مسكني الذي رغب أن يحشد داخله الرعايا الفرنسيين بالمدينة والذين كانوا قد ألزموا بيوتهم بناء على تعليماتي وقد أصبحنا سجناء." [291]

ولما آنس تماطلا من حاكم الجزائر الباي مصطفى باشا أرسل رسولا ثانيا يهدده ويتوعده بالويل والثبور إن سولت له نفسه التباطؤ عن مناصبة العداء للفرنسيين وقطع العلاقات معها، فما كان منه إلا أن بادر بإنفاذ الأوامر والتعليمات بإعلان الحرب ضد فرنسا والتنكيل بقناصلها ومصادرة أموال إحدى وكالاتها التجارية[292]

وفي ذلك بين محمد التونسي الحادثة بالقول: "... **وفي سنة 1213هـ أمرت الدولة العلية حمودة باشا بحرب الفرنسيس معها عند استيلائها على مصر فامتثل الأمر وقطع الخلطة مع القنسل وأرسل سفنه الحربية لإعانة الدولة. غير انه تحفظ للغاية على أموال التجار الفرنساويين في بلده ولم يتعرض لسفنهم التجارية...**"[293]

هذا في الوقت الذي أمر فيه حمودة باشا مندوب السلطان سليم الثالث، حاكم تونس الاستيلاء على متاجر الفرنسيين وإعلان الجهاد البحري ضد السفن الفرنسية، وفي هذا الصدد أورد ابن أبي ضياف نصا في هذه الحادثة موضحا ملابساتها بالقول: "**وفي 17 رجب 1213هـ وقع انتقاض الصلح بين الفرنسيين وتونس وسببه أن الفرنسيين لما أخذ مصر في محرم من السنة نفسها من أيدي المماليك... كاتبت الدولة العثمانية سائر مماليكها في ذلك خوفا على البيت الله وحرم رسول الله صل الله عليه وسلم، بعد أن نقضت الصلح معه ومنهم حمودة باشا ...ولما انتفض بعث الباي لإزالة علامته وزيره مصطفى خوجة فأتى بنفسه لدار الفرنسيين وأزال عود الصنجق وقال الباي للقنصل: إن أردت الإقامة بتونس فأنت على احترامك الإنساني كآحاد الفرنسيين ولاتعتبر خطتك لارتباطها بالصلح، وقد ظهر انتفاضة، وإن شئت السفر فلك ذلك ورعايا الفرنسيين في أمان الصلح الذي دخلوا به وأنا الحامي لإتمام عهدته، حتى يجمعوا أموالهم ويستوفوا مالهم وما عليهم من أسباب متاجرهم، وتوجهت عنايته بهم في سائر أحوالهم. وقوى لأجل ذلك حراسة باب البحر خوفا عليهم من عدوان الجاهلين حتى قال بعض عقلائهم: نحن الآن بدون قنصل خير منا بوجود قنصل ومن يريد السفر منهم يسافر بأمواله في أمان الله"** [294]

---

[291]–محمد عبد الكريم الوافي، **يوسف باشا**....، م.س، ص. 257.

[292] عبد الحفيظ حمان، **المغرب والثورة الفرنسية**، منشورات الزمن، الطبعة الثانية، مطبعة النجاح الجديدة، 2014، ص. 86

[293]–محمد بيرم التونسي، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، الجزء الأول، بيروت، دون تاريخ، ص. 136.

[294]– أحمد بن أبي ضياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، الجزء الثاني ، مطبعة الدار التونسية للنشر، 1979، ص ص. 46-45

أما للمغرب، فقد بعث السلطان سليم الثالث إلى المولى سليمان أكثر من مرة، يلتمس عونه وتأزيره في المعركة التي انتوى خوض غمارها طلبا في تحرير مصر من الاحتلال الفرنسي[295]، ففي مستهل شهر دجنبر1798، بعث مع باي الجزائر مصطفى باشا رسالة أورد فحواها الضعيف بيانها في المتن التالي: "**وفي 22 رجب ورد بعض الخيل من عند باي معسكر ومعهم كتاب باي الجزائر يعلمون بان العثماني وجه النجدة لأخد مصر فبدل لهم عياد الخيل وخرجوا لمكناس**"[296] وبعد أقل من شهر بعث رسالة ثانية أكثر تفصيلا عن الأحداث التي اكتنفت احتلال مصر، وعن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المزرية التي تكابدها أرض الكنانة تحت نير الاحتلال، معربا في المتن نفسه عن الإجراءات والاستعدادات التي اتخذتها الدولة العلية، والتحالفات التي أبرمتها لتطهير المحروسة من أنفاسهم وردهم على أعقابهم خائبين، آملا في الأخير مد يد العون عن طريق تسهيل عمليات تحرك السفن البريطانية في البوغاز ومضيق جبل طارق، وتزويد سفنهم بالمؤن والعتاد وكل ما يحتاجون إليه، كما رجا قطع العلاقات الاقتصادية والدبلوماسية مع الحكومة الفرنسية نصرة لدين الله وغيرة على استباحة أراضي المسلمين، مذكرا المولى سليمان بحظوة أسباط الرسول صل الله عليه وسلم في نفوس المسلمين، ودورهم الطبيعي في مظاهرة المسلمين، وقيادة طلائع المستنصرين، وحماية حمى الأراضي والأعراض ومقدسات إخوانهم من الطامعين، واستخلاصها من المغتصبين، وفي هذا الشأن يقول:" ... **نأمل من أخوتكم الصميمة ونخوتكم الهاشمية أن تعامل طائفة الانجليز بمعاملة الأصدقاء فلا تمانعوهم في نقلهم الذخائر الى جبلترة (جبل طارق) الكائنة تحت تصرفكم... لان النفع العائد عليهم عائد علينا وأيضا هم راغبون في التجارة في نواحيكم وديياركم بأخذ بعض بضائعكم لديارهم ولا يخفى أن في هذا نفعا يعم الطرفين وربح يشمل الفريقين. فالمأمول أن تساعدوهم في مطلوبهم وتوافقوهم في مرغوبهم... وأما طائفة الفرنساويين عليهم لعنة الله وملائكته والناس أجمعين فالواجب على صلابتكم الدينية وغيرتكم الإسلامية أن لا تسامحوا في نقل الذخائر إليهم وإلى من يعاونهم ويسلك في مسالكهم القبيحة ويرتكبوا ما ارتكبوه من الأمور الفضيحة بل تقطع طرقهم ودابرهم وتنهب مهماتهم وأدواتهم وذخائرهم وتعاملوهم بما يوجب ضعف حالتهم وتشتت بالهم ويورث قوة اهل الإسلام وضعف تلك الخونة اللئام وذلك إعانة لدين جدك محمد عليه السلام وشريعته المطهرة القائمة إلى يوم القيام لان الخيانة التي ارتكبوها واللعنة التي سلوكها عائد ضررها على جميع الموحدين وموجب التخلف على دفعها الوزر على كافة المسلمين على الخصوص كان من كان ذا قوة وصاحب فتوة وهمة وهذه كلها فضيلة بديهية نتائجها جلية لا تخفى على طبعكم الوقاد وذهنكم النفاذ والحاصل أملنا من طلعة ذاتك السنية وشيمك الفاروقية أن تكون معنا على قلب رجل واحد بعضنا لبعض معاضد فتشمر على ساعد الجد والاجتهاد إعانة لدين محمد خير العباد فنرفع هذه البلية عن دين خير البرية عليه أفضل الصلاة وأكمل التحية...**" [297]

---

[295]–إسماعيل سرهنك، **حقائق الأخبار عن دول البحار**، الجزء الأول، بولاق 1312.

[296]–محمد بن عبد السلام الضعيف، **تاريخ الضعيف**،الجزء الثاني، تحقيق وتقديم أحمد العماري، دار المأثورات، 1981، ص. 312.

[297]– عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب منذ أقدم العصور إلى الآن**، الجزء 9، مطبعة فضالة، المحمدية، 1988، ص. 44

وبعد شهور عاود الباب العالي المطلب نفسه للمولى سليمان، فحسب تقرير القنصل الفرنسي "كبيط" المرسل إلى وزير الخارجية الفرنسي "تاليران" نجد نبأً عن مبعوث عثماني رسمي نزل بتطوان يحمل مرسالا إلى المولى سليمان، غير أن تفشي وباء الطاعون حال دون مثوله بين يدي العاهل المغربي، ما حذا به تكليف أحد الجنود المغاربة بإيصال الرسالة إلى السلطان. وفي الأخير يشكك "كبيط" في استجابة السلطان للطلب العثماني[298].

وفي سنة 1799، بعثت الدولة العلية للمرة الثالثة طلبها الملح للانضمام إلى الحلف المعادي للفرنسيين، ودعم الأسطول الإنجليزي بكل المستطاع، مُنْميا إلى المولى سليمان فواحش "نابليون" وقواته في أرض الكنانة ومظالمها للمسلمين[299]، غير أن المولى سليمان اعتذر بكثرة المشاغل وبعد المسافة... وفساد حكام الإيالات العثمانية في شمال إفريقيا واصفا إياهم ب"**أصحاب العقول الضعيفة والأوهام...**" [300]

وبناء على هذا الموقف، يبدو أن المولى سليمان راغ إلى خيار السلم مع فرنسا، منفلتا من زلّه في أي رد فعل انفعالي ضد المصالح الفرنسية، فالمخزن كان واعيا بإمكانياته الهزيلة، ورقمه الضعيف في معادلة الصراع الجيو إستراتيجي بين القوتين الفرنسية والانجليزية، كاشفا أن اللهجة العثمانية المشحونة بمشاعر الخطاب الديني في الدعوة إلى التحالف والتكتل ضد الكفرة وأعداء الإسلام، يعرّيها التحالف العثماني الانجليزي الروسي البرتغالي، وهو تبرير حاول المخزن إفشاءه في الأوساط الشعبية، لاحتواء الآراء الممتعضة من عدم الانحياز، وتعزيز موقفه الذي يرى من الحكمة اعتناق الحياد لتجنيب البلاد والعباد موارد المهالك وأوزار الحروب والمعارك، غير أن هذا الحياد لم يمنع السلطان من بعث خطاب يهنئ "نابليون" فيه على الانتصارات التي حققها على أعدائه الأوروبيين،[301] مشفوعا بالخيول الألف التي كان "نابليون" قد طلبها منه في مرسال رسمي،[302] هذا في الوقت الذي كان المولى سليمان يسمح للفقهاء والخطباء بالدعوة إلى الالتحاق لأرض الرباط في مصر، ويغض الطرف عن شدّاد الرحال صوبها للنصرة والتعضيد.

2-ردود الفعل الشعبية: " المغرب الأقصى أنموذجا"

هبّ خبر اجتياح "نابليون" لمصر على المغاربة كالسموم، فطفقوا يحوقلون وهم يقلّبون أكفهم حسرة على ما حاق إخوانهم المصريين، وينظرون في السبل التي من شأوها إعادة الأمور إلى سابق عهدها، وقد انبرى لهذه الغاية علماء وخطباء انتصبوا في المساجد والأسواق والتجمعات... يحثون المغاربة على الجهاد بالغالي والنفيس حبا في الله وإعلاءِ كلمته ونصرةِ عباده المستضعفين في بلاد الشرق، إذ تَأذّنوا يحذرون من مغبة التقاعس أو التكاسل عن واجب المرابطة على الثغر المصري، حتى انجلاء الكريبة وانقشاع المصيبة، ومن أشهر هؤلاء نذكر على سبيل الذكر لا الحصر، الفقيه الرهوني الذي صاح في إحدى خطبه المستنصرة قائلا: " ... **فلهذا تسلط أهل الكفر على أهل**

---

[298]- عبد الحفيظ حمان، **المغرب**...، م.س، ص. 126.

[299]-محمد الفاسي، "**مشاركة المغاربة في الجهاد المصري للحملة الفرنسية**"، مجلة دعوة الحق، العدد الرابع 1974، ص.61

[300]-عبد الحفيظ حمان، **المغرب**...، م.س، ص. 126.

[301]- عبد الهادي التازي، **التاريخ** ...، م.س، الجزء 9، ص.100.

[302]- محمد بن عبد السلام الضعيف، **تاريخ الضعيف** ، الجزء الثاني، م..س، ص.607.

الإسلام واستولوا على أعظم البلاد... فما أعظمها من مصيبة أصابت الخاصة من المسلمين والعامة، فليس في الحياة بعد هذا من خبر، ولا يزداد الحال إلا لعظيم الضير..."[303]

وفي خطبة معاتبة مهيّجة للعزائم قال فيها:"...**هذا ما وقع بمصر من عظيم الفساد يخشى أن يقع بسائر البلاد، فان الناس قد شغلوا بالنساء والأموال والأولاد وتركوا أخذ الأهبة للجهاد والاستعداد فشمروا لذلك عباد الله..."**[304]

وفي خطبة أخرى محرضة على الجهاد صدح فيها:"...**وانفروا الجهاد خفافا وثقالا، وابذلوا في نصرة أخواتكم المسلمين أنفسا وأموالا، فقد أباهم النصارى دمرهم الله أفوجا، وأذافوهم من سوء صنيعهم ملحا أجاجا، فيطيب عيشكم يا معشر المسلمين وأخواتكم قد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت..."**[305]

أما أبا الربيع سليمان الحوات، فقد حذّر في خطبته الشهيرة من تحكم الحماسة والتنطع في الظعن إلى الثغر المصري، دون الإعداد والاستعداد بالأسلحة والعتاد وكل ما يجعلهم أفذاذا أندادا بما يباهي قوّة الأعداء، محذرا في الوقت نفسه من رعونة الاستخفاف بقدرات الغزاة، والاستهانة بعسكرهم العتاة. وفي هذا الأمر أعرب قائلا:"...**وهل نسيتم ما كان في هذا العصر من دخول الكفار أهل مصر وعتوهم فيها وإفسادهم نهبا وقتلا بما كاد يفضي إلى ارتداد أكثر أهلها لولا أن الله تداركهم بلطفه ورحمة منه فكيف يغتر العاقل بقوة القائل ان النصارى يعلمون ان الغرب (المغرب) بجيوش المسلمين صائل فلا قوة لهم على الخروج إليه، والإسلام يعلو ولا يعلى عليه وهل هذا قول من اتخذ إلهه هوية وكاد أن يشرك مع الله في الحول والقوة..."**[306]

ويبدو أن البعض الآخر من العلماء، وهم الأكثر حظوة في نفوس المغاربة، جنفوا إلى الرأي الشرعي القائل: بأن نفير الجهاد يعلن بقرار يصدر عن السلطان، وأن الجهاد لا يغدو ملزما إلا بأمر من أولي الأمر، وهذا ما جعل أكثر أهل المغرب يقتصرون على الجهاد بالمال والمؤن والعتاد في نصرة إخوانهم المصريين، وهو الفعل الذي تغيا في صلبه إرضاء الموقفين: الامتثال لصوت الجهاد بالمال والعتاد، والركون لرأي النفور المقيد بدعوة السلطان وأمره.

ورغم جنوح السلطان إلى موقف الحياد في حملة فرنسا على مصر لأسباب سياسية بالأساس، فان عموم الشعب وعلى رأسهم الأدباء والشعراء قرضوا أشعارا زجلية وفصيحة، اتَّعَجَ بعضها من غياب المشاركة الرسمية للإيالة الشريفة بِتعلّة مهاضة جناحها والخوف من اجتياحها، أما البعض الآخر فوجد عزاءه في المغاربة التجار والحجاج والمجاورين، الذين طبق صيتهم الآفاق في قيادة سرايا الجهاد وقض مضاجع الغزاة وحصد أرواحهم، رافعين بذلك

---

[303] – محمد الفاسي، "**مشاركة المغرب في الجهاد المصري للحملة الفرنسية**"، مجلة دعوة الحق، العدد 4-5، 1974، ص. 54.

[304] – أحمد المكاوي، **النظام، الجهاد والهجرة في مغرب القرن 19م**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- الجديدة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر الرباط، ص.10.

[305] – المرجع نفسه

[306] – سليمان الحوات، **خطبة في الحض على الجهاد**، الخزانة الحسنية، رقم المخطوط 4269. ص. 14.

الحرج عن المغاربة المتعذّر سيرهم لمجاهدة العدو. ومن بين هؤلاء المفوهين نذكر: أبا الربيع سليمان الحوات، والحاج محمد النجار ومحمد بن علي شريف ولد أرزيد،

أما أبا الربيع الحوات فقد نظم قصيدة رثائية عمودية تحسّر فيها على ما يكابده المصريون على أيدي المتسلطين، شاكيا بث المغاربة وحزنهم وقلة حيلتهم في ردّ المعتدين، داعيا في القصيدة نفسها إلى الإعداد ليوم تدور فيه الدوائر، يوم يرغم فيه المغاربة على تجرع الخَمْط نفسه الذي يتجرعه إخوانهم المصريون، متضرعا في الأبيات نفسها إلى العزيز ذي القوة المتين بأن ينصر عبده ويهزم الأحزاب وحده، وأن يمتع المغرب وسائر بلاد المسلمين بالأمن والأمان، ويجيرهم من كل معتد أثيم، ومن هذه القصيدة اخترنا هذه النتف المعبرة التي بث فيها الشاعر خوفه ورجاءه قائلا:

فيا معشر مدوا أكفكم — الى الله بالشكوى عسى يسهل الوعر
ولا تغفلوا بل استعدوا بقوة — وهل أخذت إلا بغفلتنا مصر
وهذا عدوكم دنا مثمرا — وقد ضاق من أجناده البر والبحر
فقولوا الهي ادفع عنا عن الغرب شره — وهل يدفع اللهم إلا بك الشر

في حين عرض شاعر الملحون ولد أرزيد في قصيدته الزجلية الموسومة ب الماصرية[307] بطولات المغاربة التجار والحجاج والمجاورين، وملاحمهم في استنزاف الغزاة وسومهم من بأسهم الشديد وقلب مقامهم إلى جحيم رميض، وقد قسمها إلى خمسة أقسام:

أما الأول فقد استهله بتعظيم فريضة الجهاد، وحظوتها عند رب العباد، وفضلها في نصرة الإسلام والمسلمين، وإرساء العزة والتمكين ورد كيد المعتدين في كل عصر وحين.

في حين ألقى في القسم الثاني عرضا مقتضبا عن تاريخ مصر إيّان فتحها على عهد عمر بن الخطاب، ساردا قصة العذراء التي كانت تقدم قربانا للنيل كل سنة، رجاء فيض مائه وكفّ بلائه، وكيف أدحض ابن الخطاب بواعث الفعل وديدنه، مشيدا بدور عمرو بن العاص في إعمار البلاد حتى صارت منارة للعلوم، وفضاء يعج بالعلماء وطلاب العلم. وقد استرسل في القسم الرابع، يعري سرابيل الضيم والقهر التي لفّعها المحتل للقاطنة المصرية، مبينا آليات النزف واستغلال الخيرات والمقدرات التي أقفرت الأرض وأفقرت الشعب، والتي حملت العثمانيين وهيّضت المغاربة لنصرة إخوانهم ونزع الظلم عنهم، حيث وقف يصف أسلحتهم وإقدامهم في جندلة الغزاة وثباتهم في بطاحي الوغى وحين الاشتباك، مشيدا ببسالة المغاربة على وجه الخصوص في ثورة القاهرة الثانية سنة 1800، ودورهم في طرد الفرنسيين من مصر وسقوطهم بين قتلى وجرى وأسرى في يد الإنجليز.

وفي آخر أقسام القصيدة عرض زجالنا البواكر التي قطفها المصريون فور افتكاكها من براثن الاحتلال الفرنسي، والبهجة والرواج والبحبوحة التي عادت لمصر والمصريين، والمقامات والأضرحة وطرق الحج التي صارت مُنوّقة للحجاج والزائرين من كل فج عميق، **المغاربة والحملة الفرنسية على مصر: المواقف والأدوار**

[307]– محمد الفاسي، "**مشاركة**...، م.س،ص. 54.

خلّف وقوع مصر تحت نير الاحتلال الفرنسي، أصداء واسعة في العالم الإسلامي، وكان من الطبيعي أن تكون أقوى هذه الأصداء في بلدان المغرب والحجاز باعتبار مصر محطة مرور رئيسة بالنسبة للحجاج المغاربيين، ومصدر رزق نادِح للحجازيين. وكان المجاورون المغاربة أكثر حماسة في الدعوة للذب عن الإسلام والجهاد في سبيل نصرته، فكان رد فعلهم قويا إزاء الحملة الفرنسية على مصر، أما المقيمون في مصر والوافدون عليها فقد أبلوا البلاء الحسن في مهارشة الغزاة والدفاع باستماتة على مدينة الإسكندرية إثر محاولة احتلالها، والشاهد، قرار "نابليون" الصادر في شتنبر 1798 إثر اجتياح الإسكندرية: "**بأن ينادى على الأعراب من المغاربة، وغيرهم أن يسافروا إلى بلادهم، وكل من وجد بعد ثلاثة أيام يستاهل الذي يجري عليه وكرروا المناداة بذلك وأجلوهم بعدها أربعة وعشرين ساعة**"[308]

لكنهم تعذروا في حضرة "نابليون" بأن طريق البر محفوفة بالمخاطر، والبحر طريقه مسجور بالأساطيل الانجليزية.[309] وقد وعدوه ليذرهم على الأراضي المصرية، أن يهاجروا الإسكندرية ضاربين في أراضي البلاد الواسعة، هؤلاء أنفسهم وصنوانهم المغاربة القاطنين في حي الفحامين أحد أحياء القاهرة الكبرى، نفروا بقوة إثر ثورة القاهرة الأولى سنة 1798، مُنَمْنِمين أحداثها بأمِدّة فخر وبطولات مشرفة. ومن اعترافات الجبرتي للمغاربة في هذه الموقعة قوله: " **لم تزل طائفة من المحاربين في الأزقة ممترسين فوصل جماعة من الفرنساوية وظهروا من ناحية المناخية وبندقوا على متراس الشوائين وبه جماعة من المغاربة الفحامين فقاتلوهم وعن المناخية أزالوهم.**"[310]

ولعل من أشهر الشخصيات التي وشمت تاريخ المقاومة المغربية في مصر نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

1-عبد الله باشا

جدّ هذا التاجر الإسكندراني الثري ذو الأصول المغربية في إضعاف الاحتلال الفرنسي وتذليل سبل جَرَزِه من مصر، عن طريق بذل الجهد والمال في تجنيد المجاهدين والمتحمسين وتدجيجهم بالمعدات الضرورية، أملا في تطهير البلاد من أدران أعماله ونكث موضونه، كما نجح في إرساء جيوب جهادية نواتها قبيلة أولاد علي البدوية، التي كانت ترتحل بين الإسكندرية وبرقة، وفي هذا لم يألو جهدا بالتنسيق مع الشريف محمد كريم والست نفيسة على ارتداد الأمير مراد بيك على رأس الحكم المملوكي في مصر.[311]

لكن انهزامه والعسكر المملوكي في معركة امبابة، جعلته يغير تكتيكه الجهادي مع قوات الغزو، حيث بدأ يتظاهر بقبوله بالأمر الواقع، وطفق يقدم بعض الخدمات للحاكم العسكري الجنرال كليبر، وذلك من باب التمويه، لاستقصاء أوضاع إدارته وجيشه وتحري مكامن ضعفه ومنافذ ضربه، ومن باب كذلك صيانة أملاكه وسير تجارته،

---

[308]- عبد الرحمان الجبرتي، **عجائب** ...، م.س، ص. 208.

[309]- المرجع نفسه، ص.219.

[310]- عبد الرحمان الجبرتي، **عجائب** ...، م.س، ص. 219.

[311]- هنري لورنس، **الحملة الفرنسية في مصر**، ترجمة بشير السباعي، القاهرة، 1995، ص. 208.

الأمر الذي دفع الجبرتي وغيره إلى الاعتقاد أنه عميل للغزاة بالقول " **إنه من شياطين الإنس يقتل القتيل ويمشي في جنازته**"[312]

وما يفند زعم الجبرتي عن نفاق عبد الله باشا وخيانته، بعض التقارير الفرنسية التي أثبتت ضلوعه في أعمال جهادية ضد القوات الفرنسية كما يبين النص التالي: " **لقد انتقل إلى معسكر العرب الذين يتمتع على أذهانهم بسطوة كبيرة شأنهم في ذلك شأن سكان رئيسيين في مدن إقليم البحيرة والذين تعهد معهم هؤلاء وأولئك على حمل السلاح ضد الفرنسيين وهناك تأكيدات في الوقت نفسه بأن هذا المغربي يقف على رأس تلك القوة من الجنود المسلمين التي تقوم الآن بأعمال القرصنة في البحيرة وتعترض سبل المواصلات وتنهمك في جميع التجاوزات ضد الفرنسيين**"[313]

2-الشيخ محمد الجيلاني السباعي[314]

ما إن تنام خبر سقوط مصر في الحجاز حتى تعالت أصوات الدعوة إلى الجهاد في مختلف ربوعها، وقد تزعم هذه الأصوات شيخ مغربي، حمله الخوف على ذكوة الإسلام والغيرة على مواطن المسلمين إلى استنهاض همم الحجازيين والحجاج القادمين من كل فج عميق، حيث لم تكن عقيرته تسكن من تحريض القبائل على تطهير بلاد المسلمين واسترخاص النفس والنفيس في الذود عن حدود بلاد الإسلام وصيانة بيضته من الكفرة والطامعين، حتى اجتمع له ما ينيف عن الأربعة آلاف مجاهد وفي هذا الصدد قال المؤرخ اليمني سليم مصطفى " ... **سير جماعة متطوعة من جدة وتلك الداوات فكانوا نحوا من اربعة ألاف مقاتل...**"[315] وبالتوازي مع خطب الاستنفار وحشد المتطوعين، كان لا يفتر في البحث عن المجاهدين بالمال والعتاد والمؤن والسلاح، لتعزيز صفوف المقارعين وإعدادهم بوسائل القوة وأسلحة العصر وأسباب النصر، ومن أبرز هؤلاء نذكر محمد با صلاح الحضرمي الذي مدّ المناصرين بخمسمائة بندق صفار مغربية، ومائتي حربة من حراب الشام، ومائتي سيف، وأربعة كيس من الأرز، وألفي نعل لفقرائهم، في حين تصدّق الشيخ عبد الرحمان العسيري بثلاث سفن صغيرة بمؤنها، بينما عزز الشريف غالب بن مساعد، والشيخ أحمد فاسي، ومحمد أبو العسل بالمؤن والعتاد الضروريين التي تكفيهم الحاجة، وفي هذا الصدد يقول الجبرتي:" **تواترت الأخبار ابتداء من شهر رجب(1213) بان رجلا مغربيا يقال له الشيخ الكيلاني كان مجاورا بمكة والمدينة والطائف، فلما وردت أخبار الفرنسيس إلى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية انزعج آهل الحجاز وضجوا بالحرم وجردوا الكعبة وإن هذا الشيخ صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد ويحرضهم على نصرة الحق والدين وقر. بالحرام كتابا مؤلفا في معنى ذلك فاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم**" [316]

---

[312]- الجبرتي ص. 223.

[313]- هنري لورنس، **الحملة...**، م.س، ص. 208.

[314]- محمد الجيلاني السباعي، من قبيلة أولاد أبي السباع بأحواز مدينة مراكش.

[315]- سليم السيد مصطفى، .**نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر**، القاهرة، دون تاريخ، ص. 98.

[316]- عبد الرحمان الجبرتي، **عجائب...**، ص.250.

وقد أكد هذا الخبر المؤرخ سليم مصطفى قائلا: "**وفيها قام في البلدة الحرام بوظيفة الدعاء إلى إقامة شعار سنام الإسلام، محمد المغربي الجيلاني الهاشمي لما ورد الإعلام بما صنعه الكفار اللئام من الهجوم على ساحات مصر. وتصدر بالحرم الشريف فالتف عليه خلائق واستمعوا إلى إرشاده إلى نهج الطرائق وفعل دعاؤه في القلوب ما فعل وتسامع الناس بأخباره فردوا إليه وبذلوا نفوسهم وأموالهم بين يديه**"[317]

وقد كان لأثر دعوته للجهاد وقع حتى على النساء، حيث كن يتسابقن لإلقاء حليّهن بين يديه، تقربا إلى الله ومساهمة منهن في الجهاد ضد الغزاة المغتصبين، وفي هذه البادرة يعلمنا المؤرخ اليمني بالقول: " **وكانت النساء تأتي فتسمع إلى ما يمليه من أحاديث الحض على الجهاد فيلقين إلى الحلقة فتخاتهن (خواتمهن) وعقودهن وملبوسهن** ..."[318]

وتجمع المظان التي دونت المعارك التي خاضها الجيلاني وجنده، في مناطق قنا وسمهود وأبنود وبئر عنبر وجهينة وجرجا، عن الحماسة والشراسة التي وسمت إقدامه وثباته ضد الفرنسيين. وفي هذا الصدد يقول الجبرتي: " **ركب الغز معهم وحاربوا المماليك فلم تثبت الغز كعادتهم وانهزموا وتبعهم هوارة الصعيد والمتجمعة من القرى وثبت الحجازيون ثم انكفؤوا لقلتهم وذلك بناحية جرجا وهرب الغز والمماليك إلى ناحية آسنا وصحبتهم حسن بك الجداوي وعثمان بك حسن تابعه ووقع بين أهل الحجاز والفرنسيين بعض الحروب غير هذه المرة بعدة مواضع وينفصل الفريقان بدون طائل**"[319]

وقد استطاع جنود الشيخ الجيلاني الذين سجر صيتهم الآفاق في منافحة الغزاة والصمود أمامهم في الكرّ والجَزْر، أن يستنزفوا العدو بتبني تكتيك "حرب العصابات"[320] وأن يُدرَجوا ضمن أسباب اضطرار "نابليون" وقواته المرابضة على أسوار عكا في يوليوز 1799 إلى القفول صوب العودة، بعدما تنامى إلى مسامعه استقرارهم بناحية الصعيد.[321]

وفي هذا الصدد نورد نص الرسالة التي بعثها "نابليون" للجنرال "دوجو" في 19 يونيو 1799: "**أيها المواطن الجنرال قم بإعدام المغاربة والحجازيين وغيرهم الذين جاءوا من مصر العليا وحملوا السلاح ضدنا قم بإعدام المغربيين عبد الله واحمد اللذين حرضا الأتراك ضدنا أما الشخص الذي جاء من مصر العليا ويتباهى انه قدم خدمة وأعان خمسة عشر باشا فاسجنه بالقلعة ليقوم بالأعمال الشاقة... اطلب من القبطان عمر معلومات حول المغاربة المنضوين تحت سريته والذين توقفوا عن القتال وقم بإعدام الذين تصرفوا من غير انضباط. بونابرت**"[322]

---

[317]- سليم السيد مصطفى، **نصوص يمنية**...، م.س، ص. 96 .

[318]- المرجع نفسه .97.

[319]- عبد الرحمان الجبرتي، **عجائب**...، ص.250.

[320]- محمد مزين وآخرون، **تاريخ** ...، م.س، ص. 217

[321]- المرجع نفسه، ص.288.

[322] "-correspondance de Napoléon, publiée par ordre de l'empereur Napoléon III ", Paris, MDCCCLX, tom I- XVII. p.597.

والواضح من فحوى الرسالة، أن جنود الشيخ الجيلاني كبكبوا التّعج للقيادة العامة للحملة الفرنسية، ومشاكل في خطوط الكتائب العسكرية المشكلة من مغاربة مصر، بعد أن رفضوا مقاتلة إخوانهم المغاربة والحجازيين.

فرغم الإكراهات التي واجهها الشيخ الجيلاني في مجاهدته للحملة الفرنسية، ورغم ضعف الإمكانيات والتفوق الصارخ للغزاة في الأجهزة والمعدات، فقد ظل الشيخ الجيلاني رافعا عقيرته وسلاحه نصرة للمستَعمرين في أرض مصر إلى أن وافته المنية سنة 1799م/ 1213 هـ.[323]

1-محمد المغربي

ما إن فاضت روح الشيخ الجيلاني إلى بارئها، حتى برق نجم مغربي آخر كان مجاهدا للفرنسيين في جهة البحيرة[324] يدعى مولاي محمد المغربي، وقد وفّق في لمّ شتات أتباع الشيخ الجيلاني من المغاربة والحجازيين، الذين نذروا أنفسهم للجهاد حتى استرداد آخر معقل لبلاد المسلمين في مصر والشام[325]، وقد اجتمع له جند قدّروا بالآلاف، أغلبهم من دمنهور وغرب دلتا النيل، ساعده في انضوائهم ادعاؤه المهدوية، والانتماء للأسرة العلوية الشريفة الحاكمة في المغرب.[326] وفي هذا الصدد يقول الجبرتي: "**تجمع كثير من الفرنسيين وذهبوا إلى جهة دمنهور وفعلوا بها ما فعلوا في بني عدي من القتل والنهب لكونهم عصوا عليهم، بسبب أنه أورد عليهم رجل مغربي يدعي المهدوية ويدعو الناس ويحرضهم على الجهاد وصحبته الثمانين نفرا فكان يكاتب أهل البلاد ويدعوهم إلى الجهاد فاجتمع عليه أهل البحيرة وغيرهم وحضروا إلى دمنهور وقاتلوا من بها من الفرنساوية واستمر أياما كثيرة تجتمع عليه أهل تلك النواحي وتفترق والمغربي المذكور تارة يشرق وتارة يغرب**"[327]

وقد أفشى أتباعه أنه ولي من أولياء الله المؤيدين، المعقود في ركابه النصر والتمكين، ومن كراماته المتناقلة على ألسنة الناس، قدرته على شل حركة الأسلحة النارية وإبطال مفعولها، وتحول كل ما تمسه يده إلى ذهب خالص، وقد وصمته الرسالة التي بعثها الجنرال "دوجوا" إلى "نابليون" في الشام شهر أبريل 1799، ب "**مشعوذ بربري... يعتبر نفسه قائدا لأولاد علي القبيلة العربية التي تسكن مريوط، وهو يزعم امتلاك سر استخلاص الذهب من أي شيء يضع يده عليه، والقدرة على شل الرصاصات والقنابل التي تطلق عليه وعلى جماعته والقدرة على إبقاء القنابل معلقة في الهواء**[328]"

واستطاع هذا المجاهد في 24 من أبريل سنة 1799، دحر الحامية العسكرية الفرنسية المنتصبة بدمنهور بقيادة "مارمور" والتعزيزات التي مَثُلت لمؤازرتها، ما ألجأه إلى استعجال إمدادات أخرى أكثر عددا وعدة، تملك جأش الصمود أمام جند محمد المغربي وتعزيزاته الدانية عن طريق الإسكندرية، والهجوم البحري المتوقع من الأساطيل الانجليزية، وفور وصول الرتائل المطلوبة، شن الجنرال "لانوس" في التاسع من ماي سنة 1799، هجوما كاسحا

---

[323]-م سليم السيد مصطفى. **نصوص يمنية**...، م.س، ص. 102.

[324]- تقع في الواحهة البحرية شمال مصر وتشمل المناطق الممتدة غرب رشيد ومن اهم مدنها دمنهور.

[325]- عبد الرحمان الجبرتي، **عجائب**...، ص. 327

[326]- المرجع نفسه، ص. 288

[327]- عبد الرحمان الجبرتي، **عجائب**...، م.س، ص. 174

[328]- هنري لورنس، **الحملة**...، م.س، ص. ص. 374

حوّل المدينة أثرا بعد صرح، مخلفا قتلى عدوا بالمئات، في مشهد انتقامي رامت من خلاله القوات الفرنسية ترهيب المجاهدين، وترويع أهل البلاد وتوريعهم عن التجاسر على قواتها أو التفكير في استباحة حرمتها، فهي رسالة لسان حالها ينبه لاستخلاص العبرة، ويرعّب كل من راوضته حميّة التطاول على حرمة القوات الفرنسية وهزّ هيبتها، ويعد بالجدث والسجون لكل من يأبى إلا أن يشاقق الإرادة الفرنسية وسلطتها في مصر، وهذا ما جَرَمَ بهم إلى دك المدينة وبَثْك ساكنتها بنفَس مشبع بالسادية، بيانه في نص الرسالة التي بعثها الجنرال "لانوس" إلى الجنرال "دوجوا" في القاهرة قائلا: "**إن الجندي يأخذ ثأره من مدينة دمنهور ومن سكانها، ففي البداية جرى قتل 200 او 300 من هؤلاء السكان على مشارف المدينة وهم يلوذون بالفرار، وبعد ذلك أضحت هذه المدينة الشائنة المسلك لأهوال النهب والقتل. إن دمنهور لم يعد لها وجود وقد تم إحراق ما بين 1200 و1500 من سكانها أو إعدامهم بالرصاص**"[329]

وقد اعتقد "لانوس" –من فرط الدمار والتنكيل الذي حاق المدينة– أن أَرِيماً لم ينج من هذه المحرقة، وهذا ما جعل "نابليون" في إحدى مراسلاته يجزم بمقتل القائد المغربي في حمأة المواجهة، حيث قال: "**كانت جثة الملاك المهدي نفسه بين جثث القتلى على الرغم من أن أشياعه قد زعموا لوقت طويل انه حي وأنه سوف يظهر عندما يحين الوقت لذلك**[330]"

ولم يستوعب "كليبر" كيف صدق زعم أشياعه المتوعّدين، حين بزغ محمد المغربي متزعما لِعَرْجَلَةٍ من أبابيل المجاهدين في ثورة القاهرة الثانية سنة 1800، يُهيّض همم المقاومين ويثير حفائظهم، في سرايا مشكلة من المغاربة والحجازيين واليمنيين والمصريين، الذي أسس نواة جندها الشيخ الجيلاني قيد حياته[331]، وقد رانت شرارة الثورة واشتط أوارها فور تراجع "نابليون" عن الاتفاقية التي أبرمها مع الدولة العلية، والتي التزم فيها بالانسحاب من مصر، بيد أن رفض الانجليز حلفاء السلطان لبنودها، اضطرت الباب العالي إلى خوض حرب ضد القوات الفرنسية، وضعت أوزارها بانهزامه وانقلاب "نابليون" على اتفاقه المذكور[332]، وما إن تأكد خبر نقض الاتفاقية وانهزام العثمانيين، حتى أسرعت عناصر السلطة العثمانية والمملوكية المتسربة خفية إلى الحواري المصرية، إلى مغادرة البلاد قبل أن تفطن بهم القوات الفرنسية، مقتنعين ألا فائدة ترجى من المقاومة والتصعيد، وفي هذا الصدد يقول الجبرتي " **لما عاين ذلك الجميع أجمع الكبراء والرؤساء على الخروج من البلد في تلك الليلة لعجزهم عن المقاومة**" لكن جيوب الانتفاضة المصرية المغربية في القاهرة منعتهم من الفرار، وألزمتهم الامتثال لإزماع الثوار والمجاهدين، **وفي هذا الصدد يقول الجبرتي " تسامع أهل خان الخليلي من الألداشات وبعض المغاربة**

---

[329]– هنري لورنس، **الحملة**...، م.س، ص. 375.

[330]– المرجع نفسه

[331]– عبد الرحمان الجبرتي، **عجائب**...، م.س، ص. 327

[332]– محمد مزين وآخرون، **تاريخ** ...، م.س، ص. 219.

الفحامين والغورية ذلك فجاءوا للجمالية وشنّعوا على من يريد الخروج وعضدهم عساكر البنكجرية وعمدوا الى خيول الأمراء فحبسوها ببيت القاضي والوكائل واغلقوا باب النصر"[333]

وبهذا الحزم، ألزم المغاربة والألداشات عناصر من الجند المملوكي والتجار والأعيان، الانخراط في مجاهدة القوات الفرنسية، لإجبار "نابليون" على تنفيد قراره المنقوض والقاضي بعودته وقواته من حيث دلفوا خائبين، وجدير بالذكر أن هؤلاء التجار والأعيان لم يبخلوا على الثوار والمعوزين بالمؤن والنفقات الضرورية المعينة على صمود المقاومين طوال فترة الانتفاضة[334].

ومن النوافل الجهادية التي حرص محمد المغربي على أدائها طوال أيام الثورة أنه" **كان يتجسس على البيوت التي بها الفرنسيس والنصارى فيكبس عليهم ومعه جمع من العوام والعسكر فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدار ويسحبون النساء ويسلبون ما عليهن من الحلي والثياب**[335]"

بيد أن القصف المتواصل من المدفعيات الفرنسية، وتدمير أحياء وحوارٍ بكاملها، ألجأ بعض علماء الأزهر إلى الالتماس من الجنرال "كليبر" تجميد القصف مقابل التوقف عن مناهضة الغزو ونزع فتيل الثورة، لكن محمد المغربي امتنع عن تعليق الجهاد، وظل ثاويا على خط المواجهة، يَعْشُ العُنوت لاتفاقية التهدئة، ولما استبد به القوم، ركب ميمما وجهه صوب أهل الحسينية مستثيرا نخوتهم في مظاهرته ضد قرار شيوخ الأزهر، ومؤازرته في خيار مواصلة الجهاد، وفي هذه الحادثة أورد الجبرتي قائلا " ... **وركب المغربي فتوجه إلى أهل الحسينية وطلب محاربة الفرنسيين فحضر أهل الحسينية إلى عثمان كتخدا يستأذنوه في موافقة ذلك المغربي أو منعه فأمر بمنعهم وكفهم عن القتال**"[336] هذا المروق عن إزماع العلماء والأعيان، جعل الجبرتي يستاء من أُبوقه قائلا: " **وكان ممن ينادي به عليه حين أشيع الصلح وتكلم الأشياخ: الصلح منقوص وعليكم بالجهاد... وهذا منه أفتيات وفضول ودخول فيما لا يعني حيث كان البلد مثل الباشا والكتخدا والأمراء المصرية فما قدر هذا الأهوج حتى ينقض صلحا أو يبرمه وأي شيء يكون حتى ينادي أو ينصب نفسه بدون أن ينصبه احد لذلك...ثم هو ليس له في مصر ما يخاف عليه من مسكن أو أهل أو غير ذلك... فان قدر ما قدر تخلص مع حزبه إلى بعض الجهات والتحق بالريف او غيره ... وبالجملة فقد كان الرجل سببا في تهدم أغلب المنازل في الأزبكية ومن جملة ما رميت به مصر من البلاء** [337]" وأمام هذا الاختلاف في وجهات النظر، نَغَضَ محمد المغربي شطر بعض المدن المصرية يستصرخ أهلها للجهاد، وبقي صامدا إلى أن صار قاب قوسين أو أدني من قبضة الفرنسيين، ولم تسعفنا المظان عن مآله بعد انهماد ثورة 1800، وأدواره الجديدة بعد تحرير مصر من

---

[333] عبد الرحمان الجبرتي، **عجائب**...، ص.324.

[334]- محمد مزين وآخرون، **تاريخ** ...، م.س، ص.220.

[335]ن المرجع نفسه ، ص ص 335- 336

[336]- المرجع نفسه، ص. 341.

[337]- محمد مزين وآخرون، **تاريخ** ...، م.س، ص. 336

الاحتلال الفرنسي سنة 1801، وسقوطها سنة 1807 تحت ربقة الاحتلال الانجليزي، اللهم خبر تفكك الفصائل المجاهدة فور نهاية الثورة، وعودة جموعها إلى مواطنها وانصرافها لأشغالها المعيشية[338].

4-محمد بن عبد الله الأحرش الدرعاوي[339]

هو أحد المغاربة الذي راعه ما نزل في مصر من بلاء، إثر سقوطها تحت أسر الاحتلال الفرنسي، وقد بلغه الخبر وهو متنسك بمناسك الحج، وما إن فرغ من أداء الفريضة، حتى انبرى يشحن القلوب والنفوس ويحسس الضمائر ويعبئ الرؤوس، برفع الضيم والمعرة عن قلب الأمة، واجتمع له من المناصرين أغلب حجاج أهل المغرب وتونس والجزائر، الذي أظهر معهم بسالة وإقداما كبدت القوات الفرنسية خسائر بالغة في العتاد والأرواح، وفي ذلك يقول أبو عبد الله السليماني: " **وفي سنة 1213هـ كان قيام الثائر ابن الاحرش في نواحي قسطنطينة، أصله من المغرب الأقصى، رحل من بلاده للحج ولما أجلب نابليون الأول ملك فرنسا على مصر جمع ابن الأحرش هذا جيشا من الأعراب المغربيين وإفريقية الموجودين هناك وانضم إلى الجنود المصرية... فاكتسب الشهرة بمحاربة فرانسا مع المصريين، ولما انقلب نابليون الى بلاده قفل ابن الأحرش إلى المغرب**[340]"

خلاصة

أسهم الصراع الفرنسي الانجليزي المحموم على السيادة والمقدرات والمواقع منذ القرن 18م، على إقدام نابليون احتلال مصر ومناطق شامية لاعتبارات إستراتيجية بالأساس، تغيت في خطاطتها تشييد إمبراطورية فرنسية على حوض المتوسط وامتداداته المجالية، وقد وعيت فرنسا أن التعديل من حضورها الجيوإستراتيجي وتقويته في المتوسط والتحكم في منافذه التجارية، كفيل بمحاصرة إنجلترا وتذليل انسيابها على المحيط الأطلسي، ومنازعة غريمتها على مستعمراتها في الهند والعالم الجديد، وضرب مصالحها في الصميم،

وقد فرضت هذه الخطة بداية، استعداء الدولة العلية وتقويض سيادتها على شرقي المتوسط، باحتلال مصر والشام، هذا الإجراء أسرع بالباب العالي إلى عقد تحالفات مع القوى المعادية للمشروع الفرنسي، واستنصار القوى الإسلامية في آسيا وشمال إفريقيا، وعلى رأسها الإيالة الشريفة، بيد أن الظروف الداخلية المضطربة التي كان يعيشها المغرب آنذاك، والحرّكات التي كان يسيرها السلطان لإخضاع القبائل المتمردة، ووعي الطبقة الحاكمة بهشاشة قدراتها القتالية وقدرات صنوتها العثمانية، وما يمكن أن يجره خَفْر هذا النداء من وبال على الإيالة الشريفة، جعلها تعتذر عن المشاركة بتعلاّت مختلفة، معتصمة بمِجنّ الحياد، وخيار النأي بالإيالة عن ملمات الحروب وبواعث الكروب، وهي التي عايشت في دهشة وتوجّس، السرعة التي تم بها كسر الجند المصري واحتلال بلاده، والتقطت أن الحميّة الدينية التي استصرخ بها السلطان العثماني نظيره المغربي لتوحيد الجبهة ضد المسيحيين الموصومين من لدن السلطان سليم بالكفرة وأعداء الدين، تبدت حقيقتها في التحالف الذي أبرمته الأستانة مع ممالك يدينون بالدين نفسه (انجلترا روسيا القيصرية- البرتغال)، بل بعضهم يحتل ممالك إسلامية مثل انجلترا في الهند، مدركة أن

---

[338]-المرجع نفسه، ص. 223.

[339]- محمد بن الأحرش الدرعاوي، من نواحي وزان كان مريدا عند الشيخ الصوفي العربي الدرقاوي.

[340]- أبو عبد الله السليماني، **اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب**، الطبعة الثانية، الرباط، 1971، ص. 103.

الأمر في عمقه لا يعدو صراعا بين قوى عظمى على مجالات حيوية وأعماق إستراتيجية لا قبل للمغرب بمناطحتها، لكن السلطان في المقابل سمح بجحافل المجاهدين الزحف فرادى وجماعات لمظاهرة المرابطين والشد من أزر إخوانهم في الثغر المصري، حيث شكلوا مع أترابهم المصريين والحجازيين واليمنيين...، كتائب جهادية بقيادة شخصيات من أصول مغربية، ما انفكت تُسيل أحبارا في وصف ملاحمهم وبطولاتهم في تَتْبير المحتل واستنزاف قواته.

وقد انقسمت النخبة المغربية إزاء موقف الحياد الرسمي، بين مؤيد ومعارض، فهناك من أيده أمثال سليمان الحوات، الذي صرّح في إحدى قصائده أن موازين القوى باتت كفتها راجحة لصالح الأوروبيين، وأن لا مرية في عناصر التفوق النوعي غير المسبوق للآخر، وتأثيره الجديد في تحديد العلاقة بين الدارين، وأن الأحرى استنفار الجهود والتدابير والأخذ بالأسباب التي أناخت الكفة لصالح المسيحيين، وقد خالف هذا الرأي نخبة استبد بها الانفعال العاطفي في مطارحة الحدث أمثال محمد الرهوني، الذي استهجن القعود عن الجهاد، رافضا أن يعترف بالتباين الصارخ بين القوتين عدّة وعتادا وحضارة، والتغيرات النوعية الطارئة على هذا المستوى. فحمولته التقليدية عن مفهوم القوة العسكرية، جعلت نظرته تقصر عن استنباط تبلوراتها وأبعادها الجديدة ومرتكزاتها العصرية المستمدة من القواعد العلمية والتكنولوجية والاقتصادية، وكان من البديهي أن يُزيد هذا "البراديغم" الجديد للقوة، نمطا جديدا للتدافع أكثر تعقيدا وشمولية وأكثر طموحا وتسلطا.

وهكذا نجح المغرب في تحقيق المعادلة الصعبة، وصيانة استقلال واستقرار البلاد، وتبديد ما تلبد في سمائه من تهديد، حيث أفلح في الحفاظ على موقف الحياد من الحرب الدائرة رحاها بين القوى الدولية، ووفّق في الوقوف على المسافة نفسها بين المتصارعين، حيث لبى طلب نابليون في إمداده بالخيول، وسمح للأسطول الانجليزي التزود بما يحتاجه من الموانئ المغربية، وأورب الباب أمام من عقد العزم الارتحال للجهاد في مصر وبلاد الشام.